طُبِعَ الْحَدِيدُ فَكَانَ مِنْ أَجْنَاسِهِ
وَعَلِيٌّ الْمَطْبُوعُ مِنْ آبَائِهِ(١)

ملك القلوب والزمان

واستزاده سيف الدولة فقال:

[الكامل]

عَذْلُ الْعَوَاذِلِ حَوْلَ قَلْبِ التَّائِهِ
وَهَوَى الْأَحِبَّةِ مِنْهُ فِي سَوْدَائِهِ(٢)
يَشْكُو الْمَلَامُ إِلَى اللَّوَائِمِ حَرَّهُ
وَيَصُدُّ حِينَ يَلُمنَ عَنْ بُرَحَائِهِ(٣)
وَبِمُهْجَتِي يَا عَاذِلِي الْمَلِكُ الَّذِي
أَسْخَطْتُ أَعْذَلَ مِنكَ فِي إِرْضَائِهِ(٤)
إِنْ كَانَ قَدْ مَلَكَ الْقُلُوبَ فَإِنَّهُ
مَلَكَ الزَّمَانَ بِأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ

= من جميل قول المتنبي أنه لا يوجد في الحديدية القاطعة أمثال سيف الدولة الذي يشاركها بأسمائها ويختلف عنها بمزاياه، فهو بطل شريف الأصل يمتاز بخير الفضائل خلقاً وفعالاً ونحيزة وكرماً ووفاءً.

(١) كلّ شيء يرجع إلى أصله، والحديد يكنفه الصدأ، وقد يُبليه، ولا قلب له يُحسّ به؛ والسيف لا يقطع بذاته، ولكن بيد بطل. وسيف الدولة ذلك البطل الذي من آبائه صفات البطولة والعظمة والسؤدد والشرف.

(٢) التائه: المتحير. سوداء القلب: العلقة السوداء التي في جوف القلب. لن يؤثر لوم اللائمين؛ فالقلب نافر عاصٍ لا ينفذ إليه أثارة من لوم؛ ذلك أن حبّ سيف الدولة استحوذ على لبّ قلب الشاعرِ فملأه، ولا مكان لغيره فيه.

(٣) البرحاء: الحمّى. الشوق وتوهجه. ها هو ذا قلب الشاعر يردّ على اللائمين اللوم، فحرارته تحرق ممّا يجعل لوم اللائمين لا وجود له أصلاً فقد حقن قلبه بجرعة حبّ أفعمته، فحالت دون أيّ أثر جانبي لعذل أو لوم.

(٤) المهجة: الروح. أسخط: أغضب. يعلن الشاعر للعاذل أنه على استعداد للتضحية بنفسه فدًى للملك، ولذا فإنّه حمل سائر الناس على الغضب منه لما يبذله في سبيل رضى سيف الدولة عنه. ولقد استطاع التغلغل إلى أعماق قلوب رعيّته فملكهم طاعة وحبًّا وإعجاباً، فإذا به يتصرّف كما يحلو في الأرض والسماء والبشر.

الـشَّـمْـسُ مِـنْ حُـسَّـادِهِ وَالـنَّـصْـرُ مِـنْ
قُـرَنَـائِـهِ وَالـسَّـيْـفُ مِـنْ أَسْـمَـائِـهِ[١]
أَيْـنَ الـثَّـلَاثَـةُ مِـنْ ثَـلَاثِ خِـلَالِـهِ
مِـنْ حُـسْـنِـهِ وَإِبَـائِـهِ وَمَـضَـائِـهِ[٢]
مَـضَـتِ الـدُّهُـورُ وَمَـا أَتَـيْـنَ بِـمِـثْـلِـهِ
وَلَـقَـدْ أَتَـى فَـعَـجَـزْنَ عَـنْ نُـظَـرَائِـهِ[٣]

شمس منيرة سوداء

بنى كافور داراً بإزاء الجامع الأعلى على البركة، وطالب أبا الطيب بذكرها فقال يهنئه بها:

[الخفيف]

إِنَّـمَـا الـتَّـهْـنِـئَـاتُ لِـلْأَكْـفَـاءِ
وَلِـمَـنْ يـدَّنِـي مِـنَ الْـبُـعَـدَاءِ[٤]
وَأَنَـا مِـنْـكَ لَا يُـهَـنِّـئُ عُـضْـوٌ
بِـالْـمَـسَـرَّاتِ سَـائِـرَ الأَعْـضَـاءِ[٥]

---

(١) لا يحسد سيف الدولة إلّا الشمس رغم ارتفاعها واتساع دائرة وجودها، ذلك أن النصر حليفه الدائم، وقد اتّخذ السيف اسماً من أسمائه التي تدلّ على عظمته وشرفه وأصالة محتده.

(٢) الخلال، الواحدة خلّة: المزايا الحسنة، من المستبعد أن تقارن الشمس والنصر والسيف بما يتّصف به سيف من صفات إنسانية رفيعة، فهو يرفض الظلم ويأبى الذلّ والخضوع للضعف، والنصر حليفه الدائم.

(٣) توالت الأزمنة بخيلة، فلم تأتِ بالعظماء أمثال سيف الدولة، وهو لمّا كانت الأمة على موعد معه، عجز الزمان عن أن يمدّها بشبيه لسيف الدولة بمواصفاته. وتلك مغالاة تصل إلى حدّ التملّق والكذب؛ فالتاريخ الإسلامي يفيض بذكر من هم أفضل من سيف الدولة بمئات الأميال في الزمان والمكان والمكانة.

(٤) و (٥) يدّني: يقترب. الكفء: النظير، الشبيه. فالمناسبات السعيدة قليلة في حياة البشر، وإذا ما كانت، فإنهم يتبادلون التهنئات. يرى المتنبي أنه كفء لممدوحه، ولذا فهو يهنئ نظيره، ويرى أنه من ممدوحه، وهما اثنان امتزجا بواحد، فكأنه يهنئ نفسه. وتلك مساهمة فيها كثير من المبالغة، واللوم يوجّه للممدوح الذي قبل من المتنبي مُغالاته.